مقهى الرواية ورواية المقهى

إن علاقة يمكن وصفها بالاحتضانية تنشأ بين المقهى لكونه مكانا واقعيا، والرواية بوصفها فنا واقعيا من أحد الوجوه، وهي علاقة بدأ المقهى فاعليتها، إذ قام بدور واضح في احتضان الرواية الشفوية، وهو مقهى خارج النص الأدبي، ههنا يعطي المقهى للقص صلاحية الرواية، ويوفر لها عناصر الحكي الشفوي : الراوي – الرواية – المروي لهم، وهو ما يجعل من المقهى مسرحا للحكي ويجعل العملية الحكائية بهذه الصورة شكلا يمثل مرحلة من مراحل المسرح المتطور أو الآخذ في البحث عن الشكل الذي وصل إليه[1]، ههنا ينضاف الراوية والرواية للمقهى بوصفها تساعد على قيام فعل القص، ومن ثم تنميته وقدرة عناصره على أن تتفاعل مؤدية دورها.

من هذه الناحية، يكون المقهى مكانا واقعيا قبل النصين الشفاهي والمكتوب، الشفاهي حيث يحتضن الراوي ومتلقيه، والمكتوب حيث يصبح المقهى ذا فاعلية في النص إذ يدفع إليه ويغري به، ملهما الروائي مكانا متميزا، وأشخاصا لهم تفردهم، وهو أثر نلمحه عند كثير من كتابنا، حتى أصبح عالما قائما بذاته، يقول نجيب محفوظ : "لعبت المقاهي دورًا كبيرا في حياتي وكانت بالنسبة لي مخزنا بشريا ضخما للأفكار والشخصيات"[2].

والمتابع لأعمال نجيب محفوظ وحياته يدرك قيمة هذا الدور الذي لعبته المقاهي فيهما (أعماله وحياته) . ونادرا ما نجد عملا لا يكون المقهى واحدا من العناصر المكانية التي تحتل مساحة من المكان الروائي، وتتعدد المقاهي من "قشتمر" أول

(١) من التطورياتا لتى تشير إلى تطور المسرح الحديث النظر إلى الراوى الشعبى بوصفه البذرة الأولى لهذا المسرح فالراوى الذى يقدم فنه جالساً أو واقفاً على الأرض مع زيادة أعداد المتلقين يضطر لأن يستخدم مسرحاص بدائياً أو صورة بدائية للمسرح تقوم على مكان مرتفع حتى يراه الجميع ليكون هذا المكان البذرة الأولى لخشبة المسرح

(٢) رجاء النقاش . نجيب محفوظ، صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته . مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٨ . ص ٢٣٥ .

المقاهي فى حياته قد تصدر اسمه إحدى رواياته، يقول نجيب محفوظ : "ومن أوائل المقاهي التي جلست عليها في فترة طويلة من حياتي قهوة قشتمر .. كانت قهوة "قشتمر" تبتعد عن قهوة "عرابي" الشهيرة بمسافة محطة ترام واحدة، ويوجد موقعها على ناصية شارع يؤدي إلى حي الظاهر، واسم هذا الشارع هو "قشتمر" فسمي المقهى باسمه .. وحسب معلوماتي فإن "قشتمر" هذا اسم وزير مملوكى".

ومع تعدد إشارات نجيب محفوظ للمقهى يتأكد الأثر المتبادل بين المكان والروائي، المكان بوصفه ملهما والروائي بوصفه مانحا المكان سماته وطبيعته الفنية، مما يؤسس لعلاقة متبادلة تمتد من قشتمر إلى غيره من المقاهي التي تطالعنا في معظم أعماله، ونعني بها تلك التي تنتقل من الواقع إلى سياق النصوص مثل : مقهى ركس أو خان الخليلي الذي تغير اسمه إلى "مقهى درويش" وغيرها من الأمكنة ذات الحضور الواضح في أعماله .

ذلك الحضور الذي يمتد إلى أعماله جميعها ومنها : قهوة كرشة في "زقاق المدق" وقهوة الكرنك في رواية "الكرنك" وغيرهما . وهي أعمال تؤكد فكرة المقهى بوصفه دافعا وملهما من ناحية وكيف يصبح بؤرة الاهتمام للروائي، حيث تبدو هذه المقاهي خاصة بأعمال محفوظ وحدها، يصبغها بصبغته الشعبية والإنسانية .

من هذه الزاوية يمكننا النظر في "مقهى الرواية" بوصفه مفهوما يشير إلى دلالتين:

أولاهما : أنه المقهى الذي يحتضن الرواية ويحافظ على نموها سواء أكانت رواية شفوية وهو الدور الذي لعبه المقهى قديما عندما كانت تروي السير الشعبية من لدن هؤلاء الرواة الذين يعدون وسيلة من وسائل التسلية والترفيه من ناحية، أو كانت رواية مكتوبة يصبح المقهى فيها مكانا يعد المسرح الحقيقى لأحداث الرواية معظمها أو كلها، عندها يكون المقهى مكانا خاصاً قادرا على أن يضمن لفعل الحكي الاستمرار .

والقارئ فى هذه الحالة يتعامل مع مقهى يطرحه النص منذ بدايته مما يجعله

مطروحا على وعي القارئ، مستقرا هناك بوصفه أساسا تنطلق منه الأحداث وتعود إليه، وهو ما تطرحه أعمال روائية شتى منها "الكرنك" التي يطرح فيها السارد المقهى فى استهلاله : "اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة، ذهبت يوما إلى شارع المهدي لإصلاح ساعتي . تطلب الإصلاح بضع ساعات كان على أن أنتظرها، قررت مهادنة الوقت في مشاهدة الساعات والحلي والتحف التي تعرضها الدكاكين على الصفين . عثرت على المقهى في تنقلي فقصدته، ومنذ تلك الساعة صار مجلسي المفضل "[1].

إن علاقة وطيدة ينبني عليها النص تنشأ بين المقهى والراوي، وطاقة تشويقية يبثها من خلال هذه العلاقة، ولولا احتواء المقهى على ما من شأنه أن يجعل القارئ يحاول الإجابة عن سؤال يطرحه النص : لماذا صار المقهى هو المجلس المفضل للراوي ؟ لولا ذلك ما كان لهذا الاستهلال أن يحقق وظيفته الفنية التي تجعل القارئ منجذباً إلى النص بمقهاه، ذلك الانجذاب القدري، المؤسس على المصادفة بوصفها فعلا قدريا واضحا .

ويعتمد البساطي فى رواية "المقهى الزجاجي" تقنية أخرى من شأنها أن تبث الطاقة التشويقية لذا يجئ استهلاله :"اعتدنا في الناحية أن نسميه بالمقهى الكبير، وقليلون في قريتنا الذين كانوا يسهرون فيه، كانوا يأخذون قطار المغرب ويعودون في وقت متأخر، كان المقهى على محطة السكة الحديد بالمركز"[2] .

إذ يبدأ حديثه عن المقهى معيداً الضمير (ضمير الغائب) على متقدم غير مذكور مما يجعل القارئ مدفوعا لمواصلة القراءة بغية التعرف على ما يشير إليه الضمير .

ثانيتهما : أنه المقهى الذي يرسم النص أبعاده وملامحه، تلك القادرة على أن تجعل منه مكانا مغايرا للمكان الواقعي المتعين، والمغايرة تنبع من سمتين أساسيتين :
١- كونه ليس واقعيا تماما، وإنما يستثمر الروائي مجموعة من السمات الواقعية التي

(١) نجيب محفوظ . الكرنك . مكتبة مصر . ص٣ .
(٢) محمد البساطى : المقهى الزجاجى . مطبوعات القاهرة . القاهرة . ط٢ ١٩٨٢ .

يستخدمها القارئ معيارا لرؤية المقهى المصور من لدن النص الروائى، والمغايرة ههنا بدهية اعتمادا على مبدأ المساحة القائمة- لابد- بين الواقعي والمتخيل .

٢- أن الوظائف التي يقوم بها المقهى في حياتنا الواقعية قد تختلف بدرجة كبيرة عن تلك التي يؤكد النص عليها، إذ يكون أمام النص الفرصة لأن يجعل المقهى يقوم بأدوار عدة منتجا دلالات تتأسس على الأبعاد التي يرسمها النص .

المقهى هنا يتجاوز صورته الديكورية ليكون عنصرا جوهريا في سياق النص، ولأن الرواية والمكان فيها، لا يخضعان لقانون ثابت أو خطة مرسومة مسبقاً، فإن هذا العنصر "المكان" يصبح متعددا متجددا في تركيبه وتصويره ومن ثم فى وظائفه المتعددة، التي لم تعد وقفا على إبراز البطالة والتعطل والممارسات المشبوهة وتمجيد الكسل، وإنما يكون لها من الفاعلية ما لكثير من العناصر الروائية الأخرى .

أما مفهوم رواية المقهى فإنه ذلك الذي يتأتى من خلاله طرح سؤال له أهميته الكبرى فى هذا السياق : هل يمكن الوقوف عند نوع روائي خاص بالمقهى؟ وإلى أي حد يمكن تقسيم الرواية حسب أمكنتها الخاصة؟ وما معايير المساحة المكانية التي يحتلها المقهى في النص الروائي حتى يمكننا أن ندرجها تحت هذا النوع؟ إن كثيرا من الروايات العربية تخطت حاجز أن يكون المقهى مجرد إشارة مكانية، أو علامة تمثل عنصراً مكانيا هامشيا في سياق أمكنة النص أو كونه مجرد علامة مميزة لنقطة مكانية تمنحه فرصة أن يتصدر النص عبر عنوانه، فيكون للنص الموازي "العنوان" سيطرته إذ هو يفضي إلى النص وليس العكس فيبدو في صورة المبتدأ الذي يكون النص خبره المتمم لمعناه ودلالته، ويمكن في هذا الجانب أن نشير إلى " قشتمر" و"الكرنك" لنجيب محفوظ "المقهى الزجاجي" للبساطي[1].

ومن هذا المنطلق يمكن الوضع في الاعتبار أن نوعا يمكن تحديده برواية المقهى قائم في الرواية العربية، له حضوره الواضح فيها، ذلك الحضور المؤسس على

(١) ويمكن الإشارة فيه ذه الناحية إلى أعمال أخرى لا تنتمى للرواية وإنما جاء المقهى فيها مسيطراً من خلال العنوان " على مقهى الحياة " سمير سرحان و " سيدنا الشيخ فى المقهى " مجموعة قصصية لمحمد عبد القدوس، و" مقهى الباشورة " مجموعة قصصية للكاتب الفلسطينى خليل سواحرى .

الموضوع، وعلى الحضور المكاني، والمساحة التي يشغلها على المستويين : الطولي، والعرضي، فالرواية المقهوية – إن صح هذا المصطلح – منتشرة زمنيا ومكانيا، ويمكن لدراسة موسعة أن تستجلي جوانب تطور الرواية العربية عبر المقهى بوصفه معيارا، ومقياسا للتطور مع الوضع في الاعتبار دور الرواية المصرية في تقديم هذا النوع الروائي لما يشغله المقهى من حضور مكاني وزماني عما عليه الوضع في الرواية العربية .

obeikandl.com